فى مصر أزمة أمهات !
الأطفال فى مصر وأمريكا

قرأت مرة فى إحدى الصحف المصرية تحت عنوان : " طفل ضال " أن طفلا فى السابعة أو الثامنة من العمر عثر عليه البوليس ضالا فى إحدى الطرقات وهو يبكى وقد عجز عن الإرشاد إلى أهله أو مسكنه .

وقرأت مرة فى إحدى الصحف أن بضعة أطفال فى أمريكا تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشرة تغيبوا عن دور أهليهم الذين أبلغوا إدارة الشرطة عنهم ؛ وقد ضبطتهم دوريات الميناء وهم يستقلون زورقا بخاريا على بعد أميال من الشاطئ ، ولما سئلوا عن سبب وجودهم هناك قرروا أنهم اعتزموا القيام برحلة بحرية إلى أوروبا . وقد وجدت معهم بوصلة وبعض الخرائط البحرية ! ! !

والفرق بين الحادثين هو الفرق بين ثقافة الأطفال فى مصر وفى أمريكا وبين نمو شخصياتهم هنا وهناك . وهو الفرق كذلك بين شخصية الشعب المصرى وشخصية الشعب الأمريكى ، فما الأطفال إلا رجال المستقبل وما هؤلاء الرجال إلا الشعب فى صورة أفراد .

ففى الحادث الأول نلمح الجهل والقصور والضعف ، وفى الحادث الثانى نلمح المعرفة والطموح والاعتداد ، وهذه هى عدة الصراع العالمى فى هذه الأيام ، وللنشأة الأولى دخل كبير فى غرس هذه الصفات أو تلك فى نفوس الأطفال ، حيث تؤثر فى شبابهم ورجولتهم وكهولتهم ، وتجعلهم إما أدوات سليمة قوية للنضال وإما حطاما متداعيا لا يقوى على مواجهة الحياة المعقدة المجهدة .

وهذا الطفل الضال الذى لا يستطيع الإرشاد عن أهله وعنوانه ، والذى يبكى ويخاف من كل غريب ، والذى هو من باب أولى لا يستطيع سؤال أحد عن الطريق أو لا يلجأ إلى رجل البوليس ليستعين به على الخروج من ورطته ، هو نفسه الشاب المنزوى عن المجتمع الذى يغادر المدرسة باحثا عن وظيفة حكومية معروفة سهلة فاذا لم يظفر بها لم يجد أمامه متسعا لأية مخاطرة — بل تجربة — فى العمل الحر ، وبطبيعة الحال لا يفكر فى أية مغامرة خارج بلاده التى يخاف فراقها ولو لبضعة كيلو مترات !

وقبل أن نلوم هذا الشاب على فقدان روح الثقة بالنفس وروح التجربة والمغامرة يجب أن نلتفت إلى ذلك الطفل الذى نشأ فى عزلة عقلية ونفسية ، والذى لم يدرب فى طفولته أى تدريب على الخروج من بيته أو حارته إلا وهو معتمد على سواه ، فاذا فارقه هذا المرشد المعين ضل عن مسكنه واضطرب وخاف فلم يستطع الإرشاد إلى أهله !

وهذه ثمرة لازمة لوضع المنزل المصرى ولعاداتنا الخاطئة فى تربية الأطفال لا الى طبيعة الذكاء المصرى الذى لا يقل عن مثله فى العالم . فكلنا يعرف ذلك البيت المصرى الذى ينشأ فيه الأطفال جاهلين بكل ما حولهم ، يسألون عن الأشياء المحيطة بهم فيزجرون وينهرون ويحاولون مرافقة الكبار فى أثناء خروجهم فيتهرب منهم هؤلاء الكبار : الأب لأنه ذاهب إلى المقهى وليس لديه من الفراغ ما يقضيه مع طفله يعرفه فيه بعض المسالك القريبة من الدار ويدرس معه جغرافية المنزل والمنطقة . والأم لأنها ذاهبة إلى حفلة أو زيارة ولا يصح أن يرافقها طفلها ، وقد قضت الوقت السابق لتلك الحفلة أو هذه الزيارة أمام المرآة تتزين وتتبرج لتكون فتنة الطريق أو فتنة الحفل وليصنع الطفل ما يشاء .

فاذا أطاع الأطفال غريزة حب الاستطلاع وأرادوا الخروج منفردين تكاتف جميع أفراد الأسرة على تحويفهم من الخروج تارة من " العسكرى " وتارة من " الحكيم " وتارة من " العفريت " حتى ليخيل لهؤلاء المساكين أن الشوارع تعج بالمخاوف ، وأنهم متى تجاوزوا عتبة الدار تخطفتهم الشياطين أو ذهبوا الى عالم غريب لا مخلص لهم منه ولا فرار .

و بعض الآباء والأمهات يدللون أطفالهم تدليلا سخيفا فيحسبونهم لعبا لا أحياء . يخافون عليهم من النسيم يجرح خدودهم والحرير يدمى بنانهم ، ولو استطاعوا أن يضعوهم فى علب وورق شفاف وأن يعرضوهم لمجرد الزينة لكان ذلك خيرا فى نظرهم من تركهم يتحركون وينشطون !

يريد الطفل أن يداعب القطة أو الكلب فيمنع خوفا عليه من أظفارها . يهم أن يطل من النافذة فتصرخ الأم خيفة أن يسقط أو يتعرض لتيار الهواء . يأخذ فى صعود السلم أو النزول فتولول خيفة أن يسقط فتهشم أضلاعه . يسقط على الأرض فى أثناء قفزه أو جريه فتصيح فى ذعر يتوهم معه الطفل أنه أصيب إصابة بالغة فيأخذ هو نفسه فى البكاء . تقطع له هى اللقمة وتناوله الأدام بحجة المحافظة على نظافته فينشأ وهو لا يعرف كيف يأكل أو كيف يستخدم أدوات المائدة .

وهكذا يتعلم ذلك الطفل المدلل الخوف والارتباك كما يتعلم الرخاوة والكسل والتواكل ، فاذا شب ظل طفلا فى طباعه وعقليته ، وعجز عن مواجهة الحياة الصاخبة التى تتطلب الجهد والكفاح .

و نخلص لتوحيد من هذا الوضع السيئ للبيت المصرى هو الأم المتعلمة . فعلينا الآن على المنقذ الأعظم للجيل. ولكن أى تعليم هو الذى يهيئ للفتاة أن تنهض بذلك الواجب الخطير وأن يخرج لنا أطفالا تملؤهم روح الثقة بالنفس والمرانة على الحياة والدربة على النضال والتطلع الى الآفاق البعيدة ؟

ليس هو التعليم الحالى بكل تأكيد !

فقصارى هذا التعليم أن يخرج لنا فتاة تصلح للديوان كما يصلح الفتى ، ولكن الشاب الذى يتعلم هذا التعليم لا يصلح لرعاية البيت وتكوين الأطفال فكذلك الفتاة التى تنشأ نشأته وتتعلم تعليمه وتسلك طريقه فى الحياة .

ونحن مبتلون ببعض السفسطائيين الذين ينقلون وضع المسألة فى تعليم المرأة من الدائرة العملية إلى مناقشات أفلاطونية. فيتساءلون : لم لا يتساوى الفتى والفتاة فى الحقوق؟ وإذا كان لا بد من المساواة بينهما فلم يحال بينها و بين الاشتراك معه فى التعليم ؟ وكيف يحال بينها و بين جميع الدراسات وقد دلت التجربة على أنها لا تقل عنه ذكاء ولا تتخلف فى الامتحانات بل تسبقه فى أحيان كثيرة ؟

والمسألة ليست أن الفتاة تصلح لمثل هذا التعليم أو لا تصلح ، ولا مسألة أنها صاحبة حق من الوجهة النظرية فى سلوك أى طريق تعليمى أو مسلوبة الحقوق .

المسألة مسألة وظيفة يؤديها كل فرد للمجتمع ، ومسألة استخدام أحسن المواهب لأداء هذه الوظيفة فى كل ظرف من الظروف .

ولا يجادل أحد فى أن حاجة البيت للأم المتعلمة أشد بكثير من حاجة الديوان والمكتب للموظفة والمحامية ، ولا يجادل أحد فى أن الأم المتعلمة تستطيع أن تقدم للمجتمع فى شخص أطفالها خدمات أجل وأنفع بما لا يقاس — مما تستطيع أن تقدمه لهذا المجتمع بالخطب والمحاضرات وأعمال الديوان وعضوية البرلمان .

ومن البلية أن تفهم بعض الفتيات — بتأثير إيحاء خاطئ من الكتاب السفسطائيين — أن العمل الخارجى أجل شأنا وأكثر نفعا وأدعى إلى الاحترام من سياسة المملكة الصغيرة فى العش الدافئ ، فذلك الفهم فوق أنه تشويه للفطرة الإنسانية ، مؤذ للمرأة كامرأة ومسقط لفضائل الجنس التى تدركها الفطرة السليمة .

يجب أن يكون مفهوما أن خروج المرأة للعمل ضرورة واضطرار ، وإقصاء لها عن مكانها الطبيعى الذى تستطيع خدمة جنسها وخدمة المجتمع فيه خدمة صادقة ، فاذا لم تكن الظروف الاقتصادية أو الحربية تقتضى هذا الاقصاء — بل هذا النفى — فمن الحمق التطوع به لمجرد الجرى وراء مناقشات نظرية لا تنطبق على الواقع ولا على الوضع الاقتصادى للأمة.

حق ، ولكننا ننظر إليها من ناحية حاجة المجتمع ، ومن ناحية المقدرة الإنتاجية لكل فرد واستخدام أفضل المواهب لإبراز هذه المقدرة .

والشاب يستطيع النهوض بالعمل الخارجي دون معاونة الفتاة — في الطور الحالي من تطورنا الاجتماعي والاقتصادي — بل يضيق به مجال العمل ، ولا تستطيع الدولة أن تنتفع بجهود كل الشبان. بينما هذا الشاب عاجز عن النهوض بأعباء البيت وتكوين الجيل الجديد. فيكون من الإسراف إذن في وظائف الشعب التي تشبه وظائف الجسم الواحد أن يتكالب جميع الأعضاء على أداء وظيفة معينة ، وأن تبقى وظائف أخرى لا يؤديها عضو من الأعضاء ولا سيما حين يستقر في الأذهان أن الأمومة ليست أقل شأنا ولا أحقر مقاما من العمل في المكتب والديوان .

هذا كلام واضح ، وله نتائج معينة ، أقربها إلى التناول أن يكون تعليم الفتاة — وبخاصة بنات الطبقتين الفقيرة والمتوسطة — مما يساعدها على أداء وظيفتها كاملة لا أن يشذبها إلى مسلك آخر من مسالك الحياة .

والاتجاه العقلي له قيمته في الاتجاه النفسي ، فالفتاة التي تدرس دراسة خاصة تجمع بين الثقافة العامة والثقافة النسوية ، تتهيأ نفسها للحياة المنزلية ، وتستعد وظائفها للعمل في عش الأمومة بخلاف الفتاة التي تنشأ نشأة الفتى فتذلل غرائزها وتحول اتجاهاتها وترى في البيت قيدا وسجنا ، كما ترى الكثيرات الآن ممن يفتن بالآراء الرخيصة والاتجاهات الجامحة والسفسطة العابثة .

فأما إذا اقتضت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أن تزيد الفتيات المتعلمات على حاجة البيت فحينئذ يجب أن يخرجن إلى ميدان العمل ، لأن اعتزالهن في هذه الحالة يكون إسرافا في قوى الشعب وتبذيرا في وظائفه، كما هو الحال الآن لو هجرن البيوت وهي في أشد الحاجة إلى الأم المتعلمة ، أو لم يهجرنها ولكنهن لم يتهيأن لها بثقافة خاصة كما هو واقع كذلك !

فعلى الدولة أن تنظم استخدام الثروة الآدمية بأن تخصص كل عضو للعمل الذي يحسن أداءه ولا تدع الجميع يتكاثرون في ميدان ضيق ، والميادين الأخرى خاوية . وعلى جماعة الكتاب أن يضعوا في الميزان حقائق الواقع وحالة المجتمع قبل أن ينساقوا في نظريات جوفاء لا تصلح في الحيوى من الأمور .

إن في مصر أزمة "أمهات" حقيقية ، على كثرة من فيها من "الوالدات" "فالأمومة" وظيفة أكبر مما يقاس من وظيفة "الولادة" ولن تعالج هذه الأزمة إلا بأن تعمر البيوت

الماضى والجيل الحاضر . جيل لا يضل أطفاله فى الطرقات على بعد مائة متر من عتبة الدار ولا يعجزون عن الإرشاد إلى أهليهم أو عنوانهم فيستسلمون للبكاء . جيل مثقف ثقافة منزلية قوى الشخصية ، يغامر على الأقل فى رحلة من قلب مدينة القاهرة إلى الإهرامات !!!

مصر فى حاجة إلى "أمهات" قبل حاجتها إلى محاميات وموظفات ونائبات فى البرلمان هذه هى الصيحة التى يجب أن تصل إلى كل أذن من آذان أولئك الذين يزعمون أنهم يعرفون التقدم الاجتماعى ، وهم بعيدون كل البعد عن روح البحث الاجتماعى الذى يقوم على دراسة الواقع واستشارة الأرقام قبل أن يقوم على الجدل النظرى والإغراق فى الأوهام.

—

شعر عبد الله بن الزبير بضيق الحصار عند ما خرج على عبد الملك بن مروان فقصد إلى أمه وهى عجوز قد حطمتها الشيخوخة فقال : "يا أماه. خذلنى الناس حتى أهلى وولدى . ولم يبق معى الا اليسير ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار . وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا . فما رأيك ؟ " .

فقالت : " الله الله يابنى . ان كنت تعلم أنك على حق تدعو اليه فامض عليه ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيلعبوا بك . و إن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن معك . و إن قلت : إنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا مثل الأحرار ولا من فيه خير . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن مايقع بك يا ابن الزبير . والله لضربة بالسيف فى عز أحب إلىّ من ضربة السوط فى ذل " .